

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا
وَّخُفْيَةً لَّيْنٍ أَجْمَنًا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ
يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام: 63 - 64]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَتَيْنِ لِمَا قَبْلَهُمَا:

المناسبة بين
بيان حكم الله
وحسابه، وبين
تذكير من أشرك

لَمَّا بَيَّنَّتِ الْآيَةُ السَّابِقَةُ أَنَّ مَرَدَّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ الَّذِي يَتَوَلَّى
أُمُورَهُمْ، وَلَهُ الْحُكْمُ عَلَيْهِمْ، وَهُوَ الْمَحَاسِبُ لَهُمْ، جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ
الْكَرِيمَةُ بِالْتَّهْدِيدِ وَالْوَعْدِ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُقِرُّونَ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ
وَقُدْرَتِهِ إِلَّا وَقْتُ الشَّدَائِدِ، فَيَدْعُونَهُ مُتَضَرِّعِينَ وَمُسِرِّينَ، فَلَمَّا يَكْشِفُ
عَنْهُمْ كَرْبَهُمْ يَعُودُونَ لِشُرَكَاهُمْ، وَمَعَ كَوْنِهِ تَعَالَى، هُوَ الَّذِي يُنْقِذُهُمْ
مِنْ هَذِهِ الْأَهْوَالِ، وَمِنْ كُلِّ شِدَّةٍ أُخْرَى عَلَى التَّوَالِي، إِلَّا أَنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ
مُشْرِكُونَ مَعَهُ فِي الْعِبَادَةِ غَيْرِهِ، مِمَّا لَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ شَرًّا، وَلَا يَجْلِبُ
لَهُمْ خَيْرًا⁽¹⁾.

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾: أَوَّلُ النَّجَاءِ: الْإِنْفَصَالُ مِنَ الشَّيْءِ، وَمِنْهُ: نَجَا
فُلَانٌ مِنْ فُلَانٍ، وَأَنْجَيْتُهُ وَنَجَّيْتُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأُنَجِّينَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾
[النمل: 53]، وَقِيلَ: "النَّجَاةُ: الْخَلَاصُ مِمَّا فِيهِ الْمَخَافَةُ، وَنَظِيرُهَا
السَّلَامَةُ: وَذَكَرَهُ الْحَرَالِيُّ، وَقَالَ غَيْرُهُ: هُوَ مِنَ النَّجْوَةِ، وَهِيَ الِارْتِفَاعُ
مِنَ الْهَلَاكِ"⁽²⁾، قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنْ يَنْجُ مِنْهَا أَبُو نَصْرِفَعَنْ قَدَرٍ *** يُنَجِّي الرِّجَالَ وَلَكِنْ سَلَهُ كَيْفَ نَجَا⁽³⁾
وَالنَّجْوَةُ وَالنَّجَاةُ: الْمَكَانُ الْمَرْتَفِعُ الْمُنْفَصِلُ بِارْتِفَاعِهِ عَمَّا حَوْلَهُ،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/131.

(2) الرُّبَيْدِيُّ، تاج العروس: (نحو).

(3) عبد الله المعتز، البديع في البديع، ص: 146.

سُمِّيَ به لكونه ناجياً من السَّيْلِ، ونَجَّيْتُهُ: تركته بِنَجْوَةٍ، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92]⁽¹⁾. والإنجاء والتَّنجيةُ كلاهما بمعنى التَّخْلِصِ مِنَ الْمَهْلَكَةِ⁽²⁾. وهذا هو المعنى المراد في الآية، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 103].

(2) ﴿تَضَرَّعًا﴾: يُقَالُ: تَضَرَّعَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؛ أَي: ابْتَهَلَ وَتَذَلَّلَ، وَقِيلَ: أَظْهَرَ الضَّرَاعَةَ، وَهِيَ شِدَّةُ الْفَقْرِ وَالْحَاجَةِ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرَّعًا وَخُفْيَةً﴾؛ أَي: مُظْهِرِينَ الضَّرَاعَةَ، وَحَقِيقَتَهُ الْخُشُوعَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ [الأنعام: 43]؛ أَي: تَذَلَّلُوا وَخَضَعُوا، وَقِيلَ: التَّضَرَّعُ: الْمُبَالَغَةُ فِي السَّؤَالِ وَالرَّغْبَةِ⁽³⁾. وَضَرَعَ الرَّجُلُ ضَرَاعَةً: ضَعَفَ وَذَلَّ، فَهُوَ ضَارِعٌ، وَضَرَعٌ وَتَضَرَّعٌ: أَظْهَرَ الضَّرَاعَةَ⁽⁴⁾، وَهُوَ الْمُرَادُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ يَضْعَفُونَ وَيَذَلُّونَ حَالَ الشَّدَائِدِ الَّتِي تُصِيبُهُمْ، فَيُظْهِرُونَ الضَّرَاعَةَ لِخَالِقِهِمْ، رَجَاءً أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ ضَيْقٍ وَكَرْبٍ.

(3) ﴿وَخُفْيَةً﴾: قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: خَفِيَتْ الشَّيْءُ أَخْفَيْهِ: كَتَمْتُهُ، وَخَفِيَتْهُ أَيْضًا: أَظْهَرْتُهُ، وَهُوَ مِنَ الْأَضْدَادِ، وَأَبُو عبيدة مثله⁽⁵⁾، وَقَالَ اللُّحْيَانِيُّ: خُفْيَةً: فِي خَفَضٍ وَسُكُونٍ، وَقَالَ الْأَخْفَشُ: الْمُسْتَخْفِي: الظَّاهِرُ؛ وَبِهِ فُسِّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ [الزَّعْد: 10]، وَخَطَاهُ الْأَزْهَرِيُّ⁽⁶⁾. وَخَفِيَ الشَّيْءُ خُفْيَةً: اسْتَتَرَ. وَالْخَفَاءُ: مَا يُسْتَرُّ بِهِ كَالْغِطَاءِ. وَخَفِيَتْهُ: أَزَلَّتْ خَفَاهُ، وَذَلِكَ إِذَا أَظْهَرْتُهُ. وَأَخْفَيْتُهُ: أَوَّلَيْتُهُ خَفَاءً، وَذَلِكَ إِذَا سَتَرْتُهُ⁽⁷⁾، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرَّعًا وَخُفْيَةً﴾؛ أَي: وَأَنْتُمْ مُسْتَتِرُونَ، أَوْ بِمَعْنَى: "اعْتَقِدُوا عِبَادَتَهُ فِي أَنْفُسِكُمْ؛ لِأَنَّ الدَّعَاءَ مَعْنَاهُ الْعِبَادَةُ"⁽⁸⁾.

(4) ﴿كَرْبٍ﴾: الْكَرْبَةُ: بِالضَّمِّ: الْعَمُّ الَّذِي يَأْخُذُ النَّفْسَ، وَكَذَا الْكَرْبُ، تَقُولُ: كَرَبَهُ الْغَمُّ؛

(1) الزَّائِبُ، لِلْفَرَدَاتِ: (نَجْوَى).

(2) الْكَفْوَى، الْكَلَيَاتِ: 1/338.

(3) الرَّبِيدِيُّ، تَاجُ الْعُرُوسِ: (ضَرَعَ).

(4) الزَّائِبُ، لِلْفَرَدَاتِ: (ضَرَعَ)، وَابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ: (ضَرَعَ).

(5) الْجَوْهَرِيُّ، الصَّحَاحُ: (خَفِيَ).

(6) الرَّبِيدِيُّ، تَاجُ الْعُرُوسِ: (خَفِيَ).

(7) ابْنُ فَارِسٍ، مَجْمَلُ اللَّغَةِ: 2/297، وَالزَّائِبُ، لِلْفَرَدَاتِ: (خَفِيَ).

(8) الرَّجَّاحُ، مَعَانِي الْقُرْآنِ وَإِعْرَابُهُ: 2/344.

أي: اشتدَّ عليه من بابِ نَصَرَ⁽¹⁾، يُقال: مَفَاصِلُ مُكْرَبَةٌ؛ أي: شديدةٌ قويَّةٌ، وأصله الكَرْبُ، وهو عَقْدٌ غليظٌ في رِشاءِ الدَّلْوِ يُجَعَلُ طَرَفُهُ في عَرْقَةِ الدَّلْوِ، ثُمَّ يُشَدُّ ثَنائَتُهُ رِبَاطًا وَثيقًا، يُقال منه أَكْرَبْتُ الدَّلْوُ، ومن ذلك قولُ الحُطَيْئَةِ:

قَوْمٌ إِذَا عَقَدُوا عَقْدًا لِجَارِهِمْ *** شَدُّوا الْعِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ الْكَرْبَا⁽²⁾
وبهذا يفسِّرُ قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾؛
أي: من كلِّ هَمٍّ وضيقٍ.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

يُخْبِرُ بَيَانُ اللَّهِ تَعَالَى بِامْتِنَانِهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي إِنْجَائِهِ الْمُضْطَرِّينَ مِنْهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، الْحَائِرِينَ الْوَاقِعِينَ فِي الْمَهَامِ الْبَرِّيَّةِ، وَفِي اللَّجَجِ الْبَحْرِيَّةِ، إِذَا هَاجَتِ الرِّيحُ الْعَاصِفَةُ الْعَاتِيَّةُ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُلْجِئُهُمْ هَذَا الضِّيقُ الشَّدِيدُ إِلَى خَالِقِهِمْ، فَيُفَرِّدُونَهُ بِالدُّعَاءِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، جَهْرًا وَسِرًّا؛ لِثَنِّ أَنْجَانَا اللَّهُ مِنْ هَذِهِ الضَّائِقَةِ لِنَكُونَنَّ بَعْدَهَا مِنَ الشَّاكِرِينَ، وَعِنْدَمَا يَسْتَجِيبُ اللَّهُ دُعَاءَهُمُ الْمُضْطَرِّ، وَيَكْشِفُ عَنْهُمْ كُرْبَتَهُمْ تِلْكَ، إِذَا هُمْ يَعُودُونَ لِشَرِكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ⁽³⁾، وَلَا يَفُونَ لِلَّهِ بِمَا قَالُوا، وَيَنْسَوْنَ نِعْمَةَ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ بَرَهَانٌ وَاضِحٌ عَلَى بُطْلَانِ الشَّرِكِ، وَصَحَّةِ التَّوْحِيدِ⁽⁴⁾.

❁ الْإِبْضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سِرُّ التَّعْبِيرِ بـ ﴿قُل﴾:

إِنَّ الْمَعْنَى الْمَلْفَنَةَ تَدُلُّ عَلَى التَّأَكُّيدِ عَلَى عُلُوِّ قُدْرَتِهَا، وَعِظَمِ حُجَّتِهَا وَبُرْهَانِهَا، وَهَذَا سِرٌّ عَامٌّ لِكُلِّ الْمَعْنَى الْمَلْفَنَةِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ.

كَلَّمَا كَشَفَ
اللَّهِ الْكَرْبَ
عَنِ الْإِنْسَانِ،
قَابَلَ إِحْسَانَهُ
بِالْكَفَرَانِ

المعاني الملقنة
أقوى أثرًا وأكد
معنى

(1) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (كَرْب).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كَرْب).

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/130.

(4) السَّعْدِيُّ، تيسير الكريم الرَّحْمَن: 1/260.

أثر الاستفهام التقريري في توجيه المعنى وتوضيحه:

جاء قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾ استئنافاً ابتدائياً، صدر بالاستفهام التقريري الذي أوضح انحطاط شركاء المشركين عن رتبة الإلهية⁽¹⁾، وفائدة الاستفهام التقريري إلباء الخصم إلى الإقرار، كما أن التعبير أفاد كذلك التهديد والوعيد للمشركين، بسوء ما انطوت عليه قلوبهم من التحايل والكذب على الله تعالى، وهو أعلم بهم، وحتى يقيم الحجة عليهم بسوء صنيعهم ونفاقهم في إظهار التذلل لله، وإبطان الكفر بالله، جاءت الضمائر جميعها تصدح بأن الخطاب في سياق الآيتين لهم لا لغيرهم، وزاد هذا المعنى تأكيداً قوله تعالى في ذيل الآية الثانية: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.

دلالة الحقيقة والمجاز في قوله تعالى: ﴿مَنْ ظَلَمَ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ﴾:

نلاحظ أن قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أن لفظ (ظلمات)، إما أن يكون حملاً على الحقيقة، وهو الأصل في الخطاب، وإما حملاً على المجاز، وإذا كان الوجه الأول، فيتعين تقدير مضاف؛ أي: من أضرار ظلمات البر والبحر ومخاوفهما، مما ألفه الناس وعرفوه عنها، فالليل إذا أرحى سدوله، انتاب السائرين في ظلمات البر المخاوف من العدو والآفات، وأصابتهم الخشية في البحر من العدو والتهيه والغرق⁽²⁾، وأما إجراء معنى الظلمات على المجاز فقد استعيرت فيه الشدائد الهائلة - التي تبطل الحواس، وتدهض العقول - للظلمات المبطله لحاسة البصر، حيث يقال لليوم الشديد: يوم مظلم، ويوم ذو كواكب. أو من الخسف في البر، والغرق في البحر⁽³⁾، ولا موجب ولا صارف لأي من الوجهين دون الآخر؛ بل الجمع بينهما الزم في سنن الفصاحة، والتي تعد رأساً في البلاغة.

لا ملجأ من
الله إلا إليه،
والشرك به
ضلال مبين

لا مآل في
الكره، إلا إلى
علام الغيوب

(1) أبو الشعود، إرشاد العقل السليم: 2/224 - 225.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/280 - 281.

(3) أبو الشعود، إرشاد العقل السليم: 2/225.

أثر القراءات القرآنية في تعزيز المعنى وترسيته:

زيادة المبنى
دلالة على زيادة
المعنى

أولاً: قوله تعالى: ﴿مَنْ يُجِئْكُمْ﴾ قُرِئَ بالتخفيفِ ﴿يُنْجِئْكُمْ﴾، وقُرِئَ ﴿يُنْجِئْكُمْ﴾ بالتشديد⁽¹⁾، والقراءات واضحة فإنها من نَجَى وأنجى، فالتضعيفُ والهمزة كلاهما للتعدية⁽²⁾، وقراءة التشديد تُفيدُ التَّكْثِيرَ، فزيادةُ المبنى تدلُّ على زيادةِ المعنى، ومعنى ﴿وَحُفِيَّةٌ﴾ أن تُبْطِنُوا التَّذَلُّ، وهو في مقابلةِ ﴿تَضَرَّعًا﴾ ومعناه: أن تُظْهِرُوا التَّذَلُّ⁽³⁾، وهو من الطَّباقِ الخفي.

بلغة القيد بحال جملة فعلية، فعلها مضارع في قوله تعالى: ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرَّعًا وَحُفِيَّةً﴾:

التذكير بحال
المخالف
بالخضوع
والذلة،
إلجاء له على
الإقرار بالتفرد
بالألوهية

قوله تعالى: ﴿تَدْعُونَهُ﴾ نصبٌ على الحالية من مفعول ﴿يُنْجِئْكُمْ﴾، والضمير لـ ﴿مَنْ﴾؛ أي: مَنْ يُجِئْكُمْ منها حال كونكم داعين إياه. أو من فاعله؛ أي: مَنْ يُجِئْكُمْ منها حال كونه مدَّعواً من جهتكم. وقوله تعالى: ﴿تَضَرَّعًا وَحُفِيَّةً﴾؛ إما حالٌ من فاعلِ ﴿تَدْعُونَهُ﴾ أو مصدرٌ مؤكَّدٌ له؛ أي: تَدْعُونَهُ مُتَضَرَّعِينَ جَهْرًا وَمُسِرِّينَ، أو تَدْعُونَهُ دُعاءً إعلان وإخفاءً⁽⁴⁾، ومهمةُ هذا القيدِ تذكيرهم بحال الضَّعْفِ والذَّلةِ سرًّا وجَهْرًا، والتَّعبيرُ بالمضارع بيانٌ لتكرار ذلك مستقبلاً، واستحضارٌ لما سبق في الماضي، ولو عبَّرَ بالماضي لما لاءَمَ المقام.

دلالة العطف للألفاظ في قوله تعالى: ﴿تَضَرَّعًا وَحُفِيَّةً﴾:

إفادة السياق
حال الداعين،
وهم يتضرعون
لرب العالمين

قوله تعالى: ﴿وَحُفِيَّةً﴾ عطفٌ على ﴿تَضَرَّعًا﴾⁽⁵⁾، ويُفيدُ العطفُ تنوُّعَ أحوالهم عند الدَّعاءِ وَقَتَ الشَّدَائِدِ، وانقطاعِ الأسبابِ، وفي العطفِ تناسقٌ بين ظَرْفِ الدَّعاءِ ﴿ظَلَمْتِ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ﴾ أيضاً.

(1) قرأ بالتخفيف يعقوب، وقرأ الباقون من العشرة بالتشديد. محمَّد كريم راجح، القراءات العشر المتواترة، ص: 135.

(2) السمين الحلبي، الدَّر للصون: 4/668.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/8.

(4) العكبري، الإملاء: 1/246، وأبو السَّعود، إرشاد العقل السليم: 2/225.

(5) ابن عاشور، التَّحْريِر والتَّنْوير: 7/281.

دلالة النَّصْبِ بِإِرَادَةِ الْقَوْلِ: ﴿لَئِنْ أَجْنَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾:

وجُمْلَةُ ﴿لَئِنْ أَجْنَبْنَا﴾ منصوبةٌ بإِرادة القول⁽¹⁾، والقولُ حالٌ من الفاعل على تقديرِ القول؛ أي: تَدْعُوهُ قَائِلِينَ: لئن أَجْنَبْنَا مِنْ هذه الشَّدة التي نزلت بنا⁽²⁾، ولم تُذكرْ ألفاظُ القول ولا مشتقاتُها، لانفكاكِ جهاتِ القول، ووضوحِ مَنْ قَالَ وَمَنْ حَكَى القول. وقد ذكرَ الله فحوى قولهم في ذلك الموقفِ الذي تطيشُ فيه الأبوابُ، وتذهلُ فيه العقولُ، وينسى الإنسانُ فيه الدنيا وَمَنْ فيها، ولا يبقى له منفذٌ إِلَّا الصَّرَاعَةُ إِلَى اللَّهِ المغيثِ، في كلِّ كَرْبٍ شديدٍ.

دلالة أَسْلُوبِ الْقَسَمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَئِنْ أَجْنَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ﴾:

واللَّامُ فِي ﴿لَئِنْ﴾ الموطَّئَةُ للقَسَمِ، وجوابُها اللَّامُ فِي ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، وجُمْلَةُ (نكوننَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) لا محلَّ لها؛ لأنها جوابُ القسمِ لتقدِّمه، حسبِ القاعدةِ، وحُذِفَ جوابُ الشرطِ لتأخُّره⁽³⁾، وجيءَ بضميرِ الجَمْعِ؛ إمَّا لأنَّ المقصودَ حكايةَ اجتماعهم على الدُّعاء، بحيثُ يدعو كلُّ واحدٍ عن نفسه وعن رفاقه، وإمَّا أَنَّهُ أُرِيدَ التَّعبيرُ عن الجَمْعِ باعتبارِ التَّوزيعِ، كقولنا: رَكِبَ القَوْمُ خَيْلَهُمْ، وإنَّما رَكِبَ كلُّ واحدٍ فَرَسًا، وهذا البناءُ على ذَكَرِ جوابِ القسمِ ألصَقُ بحالهم من ذَكَرِ جوابِ الشرطِ، إذ حالهم في تلك الكربةِ والشَّدةِ لا يليقُ معه ذَكَرُ شرطٍ وجوابه، ولكن يليقُ به القسمُ المفيدُ توكيدَ الوعدِ بالشُّكرِ.

دلالة خطابِ الله بقرأة: ﴿لَئِنْ أَجْنَبْنَا﴾، وقراءة: ﴿لَئِنْ أَجْنَبْنَا﴾:

وفي قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَجْنَبْنَا مِنْ هَذِهِ﴾، قرأ الكوفيون: ﴿أَجْنَبْنَا﴾ بلفظِ الغيبةِ، مراعاةً لقوله: ﴿تَدْعُونَهُ﴾، والباقيون: ﴿أَجْنَبْنَا﴾ بالخطابِ حكايةً لخطابهم في حالة الدُّعاء، وقد قرأ كلُّ بما رُسِمَ

مَنْ أَنْجَاهُ اللَّهُ لَا
تَضُرُّهُ النَّوَازِلُ فِي
دُنْيَاهُ

الصَّرَاعَةُ بِالدُّعَاءِ
فِي الْكُرُوبِ،
قَرَعَ لِبَابِ عِلَامِ
الْغُيُوبِ

إِذَا قَسَا الْقَلْبُ لَا
تَنْفَعُهُ مَوْعِظَةٌ،
وَلَا تَلَيِّنُهُ عِبْرَةٌ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/139.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 2/177.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/140.

في مصحفه، فإنَّ في مصاحف الكوفة: ﴿أَنْجَنْتَا﴾، وفي غيرها: ﴿أَنْجَيْتَنَا﴾⁽¹⁾، والقراءة الأولى تفضحُ العنادَ والغطرسةَ و"تكشفُ عن تلك الطبائع المنكرة، وهذه القلوب القاسية، التي تأتي أن تُخلص الإيمان، حتَّى وهي في مواجهة الموت، فلا يدعون الله دعاءً من هو حاضرٌ في نفوسهم، مُستَوِلٌ على كياناتهم، بل يدعونه دعاءً الغائب، البعيد عنهم ﴿لَئِنْ أَنْجَنْتَا﴾؛ لأنَّهم لا يعرفونه، ولا يعلمون أنَّه قريبٌ منهم، يسمع سرَّهم ونجواهم"⁽²⁾، وهذا تعسُّهم، وضلالُ سعيهم، وبعدُّهم عن الله في العمق، وإن اضطرَّهم الكربُ إلى القسم والضراعة إليه سبحانه. والقراءة الأخرى بالخطاب ﴿لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا﴾ كاشفةٌ عن حالهم وقتها، والأولى كاشفةٌ عن طبائعهم الثابتة. والقراءتان تؤكدان الخشية المزيفة، التي ما فتئ هؤلاء الأقوام يُظهرونها، بخطاب الله أن يُفَرِّجْ كُروبهم؛ ليكونوا من الشَّاكرين، وهم يعلمون أنَّهم غيرُ جادِّين، فيما يقولون.

اعتبارات فهم اسم الإشارة في قوله: ﴿لَئِنْ أَنْجَنْتَا مِنْ هَذِهِ﴾:

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَنْجَنْتَا مِنْ هَذِهِ﴾ الإشارة بـ ﴿هَذِهِ﴾ فيها ثلاثة اعتبارات: الأول: باعتبار الظلمة المشاهدة للمتكلِّم، وما ينشأ عنها. والثاني: باعتبار المعنى المجازي، وهو الشدَّة. والثالث: باعتبار الحالة التي يُعبَّرُ عنها بلفظ مؤنَّث، مثل: الشدَّة أو الورطة أو الرِّبْقَة⁽³⁾.

والإشارة إليها بلفظ ﴿هَذِهِ﴾: يدلُّ على عِظَمِ المصيبة التي كانت ماثلةً أمامهم، وكأنَّهم يرونها شاخصةً لأعينهم، فهم يُبصرونها، ويُشيرون إليها، بقولهم: ﴿لَئِنْ أَنْجَنْتَا مِنْ هَذِهِ﴾.

(1) الثَّانِيَةُ: ﴿لَئِنْ أَنْجَنْتَا﴾ قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف، والأولى: ﴿أَنْجَيْتَنَا﴾، قراءة الباقرين. يُنظر: السَّمين الحلبي، الذَّرُّ للصون: 4/670، وابن الجزري، النشر: 2/259.

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 4/205.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/282.

في سَاعَةِ الْكَرْبِ
تَمَثَّلُ الْمَصِيبَةُ،
وكَأَنَّهَا مُبْصِرَةٌ
قَرِيبَةٌ

دلالة التعبير بحرف الجر ﴿مِنْ﴾ مع إمكان الاستغناء عنه لغةً:

في قوله تعالى: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، أبلغ من أن يُقال: (لَتَكُونَنَّ شَاكِرِينَ)، حيث أفادَ هذا السياقُ زيادةً في معنى الشُّكر، فهو ليس مجردَ شُكر، وإنما رسوخٌ في الشُّكرِ ودوامٌ عليه؛ أي: لَتَكُونَنَّ مِنَ الرَّاسِخِينَ في الشُّكرِ المداومينَ الثَّابِتِينَ عليه؛ لأجلِ هذه النِّعمةِ، أو جميعِ النِّعمِ؛ ومن جُمَلِتها هذه النِّعمةُ⁽¹⁾.

وهناك ملمحٌ آخرٌ يُفهمُ من استعمالِ الأداةِ (مِنْ)؛ وهو فضلُ الجماعةِ الشَّاكرين على الفردِ الشَّاكرِ، لذلك قالوا: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾؛ إذ وجودُ الشَّاكرين دليلٌ على شيوعِ الشُّكرِ، واتِّصافِ المجموعِ به، ولو كانت نواياهم صادقةً - وهي لم تكن كذلك - لكان في ذلك ما يضمنُ لهم الوفاءَ لله بما وعدوه، ولكنَّ ديدَنَهم الخُلُفُ، والبَطَرُ، ونكرانُ الجميلِ.

فضل جملة: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا﴾؛ لجريانها مجرى القول في المحاورَة:

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا﴾، أمرٌ لرسولِ الله ﷺ بتقريرِ الجوابِ للاستفهامِ السابق: ﴿مَنْ يُنَجِّيكُمْ﴾، ولذلك فُصِّلَت جملةُ ﴿قُلِ﴾؛ لأنها جاريةٌ مجرى القول في المحاورَة؛ وتولَّى الجوابَ عنهم؛ لأنَّ هذا الجوابَ لا يَسَعُهُم إلا الاعترافُ به، فهو مُتَعَيِّنٌ عندهم لا مفرَّ منه، ولبناءٍ قوله تعالى في ذيل الآية: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ عليه⁽²⁾.

تقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿اللَّهُ﴾ على الخبرِ الفعليِّ؛ لإفادةِ الاختصاصِ:

قدَّم المُسنَدُ إليه، لفظُ الجلالةِ ﴿اللَّهُ﴾ على الخبرِ الفعليِّ ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْهَا﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ؛ أي: الله يُنَجِّيكم لا غيرُه، ولأجلِ هذا صرَّحَ بالفعلِ

لو كان المُبتَلَوْنَ
مِنَ الشَّاكِرِينَ
لَمَّا كَانُوا مِنَ
المُشْرِكِينَ

الجوابُ مَنْ
الله يقينٌ، فلا
مُندوحةَ مَنْ
التَّسْلِيمِ

مَنْ ظَنَّ أَنَّ غَيْرَ
الله يُنَجِّيه، فقد
خابثَ مساعيه

(1) أبو الشعود، إرشاد العقل السليم: 2/225.

(2) أبو الشعود، إرشاد العقل السليم: 2/225.

المستفهم عنه، ولولا هذا لاقتصر على: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾، والمعنى: "قل: الله - وحده - هو الذي يُنقذكم من هذه الأهوال، ومن كل شدة أخرى، ثم أنتم مع ذلك تُشركون معه في العبادة غيره، مما لا يدفع شرًا، ولا يجلب خيرًا"⁽¹⁾، ومن اعتقد أن غير الله سينجيه من الهول العظيم، والكرب المبين، فقد ضل سعيه، وخسر خسارًا مبینًا.

دلالة عطف شبه الجملة ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ على الضمير في ﴿مِنْهَا﴾:

ظلمات البر
والبحر، مثال
لاتساع الفتن
والكروب

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾، نجد أن الضمير في ﴿مِنْهَا﴾ عائد للظلمات، وقد زاد على تفرج الظلمات الغاشية، أنه سينجيهم من كل كرب، وهو بقوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾، يفيد التعميم، وأن الاقتصار على ظلمات البر والبحر بالمعنيين، مجرد المثال⁽²⁾، والله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فهو "ينجيهم من الظلمات المادية في البر والبحر، و(هو) سبحانه بعلمه الأزلي، يعلم أنهم بعد النجاة، سيعودون إلى ما نهاهم عنه من شرك به؛ لأن الإنسان بطبيعته، عندما يجد حياته مكتفية بما يملكه، قد يقف فيما قاله الحق ﷻ: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَىٰ ۖ أَن رَّأَاهُ اسْتَعْثَىٰ ۚ﴾ [العلق: 6-7]⁽³⁾، وهذا يدل على سعة رحمة الله ولطفه، وصبره على عباده وحلمه.

تنوع القراءات القرآنية، وثناء المعنى في قراءة: ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾، وقراءة: ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾:

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ﴾ في ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾ قراءتان⁽⁴⁾: الأولى: ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾ بسكون النون، وكسر الجيم. والثانية: ﴿يُنَجِّيكُمْ﴾ بفتح النون، وكسر الجيم المشددة.

من بني الإنسان
من لا يذكر الله
إلا إذا ادلهم
الخطب، واشتد
الكرب

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 182.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/282.

(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 6/3696.

(4) قرأ بالأولى: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن ذكوان، ويعقوب، وقرأ بالثانية: الباقون من

العشرة، ينظر: ابن الجزري، النشر: 2/259.

وقراءة التشديد تفيد التَّكثِيرَ⁽¹⁾، فزيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، وفي التشديد من المبالغة والدلالة على التكرار ما ليس في التَّخْفِيفِ⁽²⁾، وهي بالتَّخْفِيفِ، تعني: أَنَّ النِّجَاةَ في تلك الحالة كائنة لا محالة، وهي بالتَّشْدِيدِ تُفيدُ المبالغة والتَّكثِيرَ في الفعل، "والمعنى: أَنَّ الله يُنَجِّيكُم المرَّةَ بعد المرَّة، من تلك الظُّلُمَاتِ، ومن كلِّ كَرْبٍ يَعْرُضُ لَكُمْ، ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ به غيره - بعد النِّجَاةِ - أَقْبَحَ الشَّرِكِ، مُخْلَفِي وَعَدِكُمْ له بالشَّكْرِ، حَانِثِينَ بما وَكَّدْتُمُوهُ به من اليمينِ، مواظِبِينَ على هذا الشَّرِكِ مُسْتَمِرِّينَ، لا تكادُونَ تَسْوَنَهُ إِلَّا عند ظُلْمَةِ الْخَطْبِ، وشِدَّةِ الْكَرْبِ"⁽³⁾.

دلالة ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾:

أفادت ﴿ثُمَّ﴾ من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ التَّرتِيبَ الرَّتَبِيَّ؛ لأنَّ المقصودَ أَنَّ إشْرَاكَهُمْ مع اعترافهم بأنَّهم لا يَلْجِئُونَ إِلَّا إلى الله في الشَّدَائِدِ أمرٌ عَجِيبٌ، فليس المقصودُ الْمُهْلَةَ⁽⁴⁾، وقد عبَّرَ بالدلالة على قُرْبِ النَّكُوصِ، والمبادرةِ إلى الشَّرِكِ فورًا، وكأنَّه يقول لهم: "إِنَّ الله وحده هو الَّذي يُنْقِذُكُمْ من هذه الأهوالِ، ومن كلِّ شِدَّةٍ أُخْرَى، وعلى ذلك، فَسُرْعَانَا ما تَحْنِثُونَ بِأَقْسَامِكُمْ، وَتُشْرِكُونَ معه في العبادةِ غَيْرَهُ"⁽⁵⁾، فدلَّتْ (ثُمَّ) على السَّرعَةِ والهرعِ إلى ذلك الفعلِ المذمومِ.

تقديم المسند إليه على الخبرِ الفعليِّ، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾:

تقدَّمَ المسندُ إليه ﴿أَنْتُمْ﴾ على الخبرِ الفعليِّ ﴿تُشْرِكُونَ﴾؛ لبيان الاهتمامِ بخبرِ إسنَادِ الشَّرِكِ إليهم؛ أي: أَنْتُمْ الَّذِينَ تَتَضَرَّعُونَ إلى الله باعترافكم، تُشْرِكُونَ به من قَبْلُ ومن بَعْدُ، من بابِ قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 85].

الْجِسَّةُ فِي
الشَّرِكِ رَتَّبَ مِنْ
دُونَهَا رَتَّبَ

مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ
حَبِطَ عَمَلُهُ،
وَضَاعَ أَمَلُهُ

(1) الشُّوْكَاتِي، فتح القدير: 2/177.

(2) رضا، تفسير النار: 7/407.

(3) رضا، تفسير النار: 7/407.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/283.

(5) إبراهيم القطان، تيسير التفسير: 1/476.

وجيء بالمسند فعلاً مضارعاً؛ لإفادة تجدد شركهم، وأن ذلك التجدد والدوام عليه أعجب. والمعنى: أن الله أنجاكم فوعدتم أن تكونوا من الشاكرين، فإذا أنتم تستبدلون الشرك بالشكر⁽¹⁾! قال الشوكاني: "ثم أنتم تُشركون بالله سبحانه - بعد أن أحسن إليكم، بالخلوص من الشدائد، وذهاب الكروب - شركاء لا ينفعونكم، ولا يضرّونكم، ولا يقدرّون على تخليصكم من كل ما ينزل بكم، فكيف وضعتم هذا الشرك موضع ما وعدتم به من أنفسكم من الشكر؟"⁽²⁾.

❁ الفرق المجمعية:

الخفية والنجوى والسر:

الخفية لفظ
عام فيما لا
يظهر، والنجوى
لا تكون إلا في
الكلام، والسر
في الكلام وغيره

أجمع المفسرون على أن السر: "ما أسرّته في نفسك، وأخفى من ذلك: ما لم تحدّث به نفسك، وقالوا أقوالاً كلّها ترجع إلى الكتمان لا الإظهار، وكذلك ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام: 28]؛ يعني: ما يسترون، وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [سورة النمل: 25]⁽³⁾، وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ [إبراهيم: 38]، ومثل هذا كثير في القرآن، والعريية، والشعر"⁽⁴⁾.

وأما النجوى فاسم للكلام الخفي الذي تُتاجى به صاحبك، كأنك ترفعه عن غيره، وذلك أن أصل الكلمة الرفعة، ومنه: النجوة من الأرض، وسمي تكليم الله تعالى موسى عليه السلام مناجاة؛ لأنه كان كلاماً أخفاه عن غيره.

والنجوى: تتناول جملة ما يُتجاسى به من الكلام، ولا تكون إلا كلاماً، وأما السرُّ فإخفاء الشيء في النفس، ولو اختفى بسترٍ أو وراء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/283.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 2/143.

(3) قرأ القراء العشرة - عدا حفص والكسائي - بياء الغيبة، يُنظر: ابن الجزري: النشر: 2/337.

(4) إبراهيم بن إسحاق الحري، غريب الحديث: 2/847.

جدار لم يكن سرًّا، ويُقال: في هذا الكلام سرٌّ، تشبيهًا بما يخفى في النفس، والسرُّ يتناول المعاني، وقد يكون في غيرها مجازًا، تقول: فعلَ هذا سرًّا، وقد أسرَّ الأمر⁽¹⁾، وسياق الآية الكريمة استخدم كلمة (خُفِيَّةً)؛ لأنها تعني السُّتْر⁽²⁾؛ لأنَّ المشركين كانوا يدَّعون الله بحالتين: التَّضَرُّع؛ أي: بضعفٍ ودُّلٍّ، والخُفِيَّة؛ أي: وهم مُستترون بستر فيما بينهم وبين أنفسهم أو من وراء ستار يستترون به، وليس السرُّ ولا النجوى كذلك، فكانت كلمة ﴿وَحُفِيَّةً﴾ أحقَّ من غيرها في الموضع والسياق الذي وردت فيه.

الكرب والحزن:

الحُزْنُ: الحزنُ، ضدُّ السرور، وقد حزن من باب طَرَبَ، وحَزَنَهُ لغة قريش، وأحزنه لغة تميم؛ وقُرئ بهما. تكاثف الغمَّ وغلظه. مأخوذٌ من الأرضِ الحَزَن؛ وهو الغليظُ الصُّلب⁽³⁾، وأما الكَرْبُ فهو تكاثفُ الغمِّ مع ضيقِ الصدر، ولهذا يُقالُ لليومِ الحارِّ: يومُ كَرْبٍ، أي: كَرْبٌ من فيه، وقد كَرَّبَ الرجلُ وهو مكروبٌ، وقد كَرَبَه: إذا غمَّه وضيَّقَ صدره⁽⁴⁾.

الكرب أقوى من
الحزن

وبهذا يتضح أنَّ الكربَ أشدُّ من الحزن، وأثره في الصدر أقوى من أثر الحزن.

والسياق القرآني في معرض منَّة الله على أولئك المشركين، بأنَّه لا يُنجيهم ممَّا يدَّعون به من كشفِ الشُّدَّةِ فَحَسَبُ؛ بل الله يُخلِّصهم منها ومن أيِّ كَرْبٍ يُسبِّبُ لهم الغمُّ أو الضيَّق الذي يجدونه في صدورهم، ويثقل عليها، وبهذا المعنى اتضح أنَّ استخدام البيان الإلهي لكلمة (كَرْب) أشدُّ وطئًا فيما سيقت من أجله، وأقومُ قليلًا.

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 533.

(2) ابن فارس، مجمل اللغة: 2/297.

(3) الزَّاوِي اللغوي، مختار الصحاح: (حزن).

(4) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 185.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي عشر، سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم

الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 11، 808 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-798-63-7

يشتمل على ارجاعات بيبليوجرافية.

مج. 11: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-798-63-7

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-9795022 بتاريخ 2023/12/19م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»